منطقة سيدي بلعباس
ومكانتها في سياسة فرنسا الاستعمارية
(1842 - 1954)

أ.حنيفي هلايلي

جامعة الجزائر

لقد ركزت معظم الدراسات التاريخية على الدور الاستراتيجي الذي لعبه الجيش الإفريقي[1] الفرنسي إبان فترة احتلال الجزائر(1830). فالاستراتيجية الاستعمارية في منظور هذا الجيش هي فن استخدام القوة للوصول إلى الأهداف التي تحددها السياسة.

يعود التمركز المكثف للاستيطان الأوروبي في الغرب الجزائري إلى إنجازات الجيش الإفريقي الذي مهد الطريق أمام طموحات المعمرين والمغامرين والتجار الفرنسيين. وإنه لمن الأهمية بمكان معرفة بداية تأسيس المدن والقرى الأوروبية بالقطاع الوهراني ومحاولة فهم مميزات هذه المناطق بهذه الفترة الحرجة من تاريخ الجزائر المعاصرة.

إن الغاية من هذا المقال هو محاولة تسليط الضوء على عناصر الأهمية الإستراتيجية الفرنسية في بناء منطقة سيدي بلعباس ومكانتها في السياسة الاستعمارية من خلال المحطات التالية:

أ - تعمير المنطقة بالجنس الأوروبي في إطار سياسة الاستيطان بالاعتماد على سياسة الأرض المحروقة وإبادة السكان.

ب - تشييد المراكز والتحصينات العسكرية التي تضم الجنود من فرق اللفيف الأجنبي.

ج - استغلال خيرات المنطقة بفضل توسيع الشبكة الزراعية وتأطيرها بواسطة الضيعات، التي يسيرها المعمرون تسييرا إقطاعيا.

د - ربط المنطقة بشبكة من طرق المواصلات.

أولا: دور منطقة سيدي بلعباس في المقاومة الشعبية:

من القرن الثالث عشر إلى سنة 1830 يذوب تاريخ المنطقة في تاريخ **بني عامر**، الذين يستقرون في ربوع سهل مكرة فهم موجودون في كل المقاومات ضد التواجد الأجنبي (الإسباني ثم الفرنسي).

لقد كان **بنو عامر** من بين القبائل الجزائرية التي سارعت إلى المبايعة وتلبيه نداء الجهاد الذي أعلنه زعيم المقاومة الشعبية الأمير عبد القادر[2]وقد سجل لنا شاعر بني عامر **مصطفى بن إبراهيم** (1800 -1867)، مشاركة بطون **بني عامر** في المقاومة إلى جانب الأمير"**كأولاد خالد والحساسنة, أولاد إبراهيم** و**بني مريانة** و**المهاجة** وغيرهم..." [3]، وكانت مشاركتهم في الجهاد منذ 1834.

ويتمثل دور **بني عامر** في مقاومة **الأمير عبد القادر** في تعذية جيشه بالمقاتلين والفرسان، ويتضح ذلك من خلال تقرير عسكري, الذي أشار في إحصاء له أن عدد سكان المنطقة يقدر بـ 35.563 نسمة منهم 5.091 مقاتل، و 2063 فارس[4]. وبسبب التمركز القوي للجيش الإفريقي بمنطقة مكرة، هاجرت قبائل بني عامر إلى المغرب الأقصى لمواصلة الجهاد والمقاومة بزعامة الأمير. وفي جانفي 1845 أقامت إدارة الاحتلال الفرنسي حصنا وثكنة قرب ضريح الوالي الصالح **سيدي بلعباس** لحماية وتأمين المواصلات ما بين

وهران وتلمسان من جهة ومراقبة النشاط الثوري لقبائل المنطقة من جهة أخرى، وكتب **ليون باتيسد** في سنة 1880 عن سيدي بلعباس: "حيث كانت الأوحال أصبحت مكانها الزراعة والضيعات الخصبة, وحيث كانت الأحراش بنيت على أنقاضها القرى، وعبدت الطرقات. لقد تم بناء مدينة أوروبية في مكان تمركز القبائل المحلية".[5]

وبسب انهزام ثورة **أولاد إبراهيم** (جانفي 1845) بقيادة **عبد الرحمان العامري الطوطي**[6] أجبرت قبائل منطقة سيدي بلعباس للمرة الثانية على الهجرة الجماعية إلى المغرب، تاركة سهل مكرة للمستوطنين وتمركز عناصر اللفيف الأجنبي. أما ما تبقى من أسر الثوار فقد تمكنت من اللجوء إلى أعالي جبال تسالة.[7]

وأثناء إقامة **بني عامر** في الأراضي المغربية وتحت طائل التهديدات الفرنسية للحكومة المغربية، قام السلطان عبد الرحمن بمداهمة مخيمات اللاجئين من بني عامر بقواته المقدرة بـ 15000 رجل, وكانت نتيجتها مقتل العديد من بطون هذه القبيلة [8]. والجدول التالي يوضح لنا بطون **بني عامر** التي هاجرت إلى الأراضي المغربية وتاريخ عودتها إلى منطقة سيدي بلعباس.[9]

القبائل	تاريخ الهجرة	تاريخ العودة
أولاد إبراهيم - العمارنة	1845	1849
أولاد سليمان	1845	/
ذوي عيسى	1845	1849
أولاد سيدي علي بن يوب	1845	1849
أولاد بلاغ	1845	1849
أولاد سيدي خليفة	1845	1849
المهاجة	1945	1848
جعفر بن جعفر	1845	1849

ومنذ تاريخ (1842) إلتحاق بنوا عامر بالأمير عبد القادر ومغادرتهم للأراضي الجزائرية هروبا من سياسة الأرض المحروقة, صرح الحاكم العام الجنرال **بوجو** بتاريخ 18 أفريل 1846:"كل الأملاك العقارية والمنقولة الجماعية منها والفردية التابعة للقبائل التي هاجرت إلى المغرب أو الصحراء, أصبحت ملكا للإدارة الفرنسية.[10]

ثانيا: سياسة الاستيطان بمنطقة سيدي بلعباس:

وضع أسلوب ذكي لنزع الملكية الجزائرية وطبقت سياسة حصر القبائل. وقد نجح هذا الاستيطان بمساعدة الجيش الإفريقي في شق الطرقات, وبناء القرى, في استصلاح الأراضي, مما أدى إلى إنشاء خمسة وثلاثون مركزا إستيطانيا ما بين عامي 1842 - 1845 وتدفق المهاجرون الأوروبيون ليصل عددهم إلى 46.180 نسمة في عام 1845. وقد ابتكرت مراسيم 1844 أسلوب نزع الملكية بحجة عدم

زراعتها، فأدخلت تنظيمات جديدة في النظام العقاري ولكن التدقيق في سندات الملكية تحول إلى الغصب والمصادرة, واضطر فقدان المراعي والأراضي الخصبة إلى الهجرة الجزائرية الجماعية.[11]

وأرادت الجمهورية الفرنسية الثانية (1848 -1852) تسوية الملكية في الجزائر بمقارنتها بالملكية الفرنسية فقسمت الملكية إلى خاصة (ملك) وجماعية (العرش), وأن الدولة تملك جميع الغابات والمراعي مع إمكانية الاحتفاظ بحقوق الاستعمال, وهو الأمر الذي عجل بارتفاع عدد المستوطنين والذي بلغ أواخر عام 1851 حوالي 33.000 مستوطن ريفي من أصل 131 ألف أوروبي موزعين على النحو التالي: 66000 فرنسي. 65000 أجنبي.[12]

يعتبر ميلاد مدينة سيدي بلعباس في نظر الكتابات الفرنسية أسطورة في تاريخ الاستعمار باعتبارها مدينة تأسست في أحضان المعمرين الأوروبيين. ففي سنة 1842 كانت منطقة سهل مكرة عبارة عن مخيم ومركز عسكري لمراقبة طريق المواصلات ما بين وهران وتلمسان، وكان الهدف الاستعماري من إنشاء مركز استيطاني بالمنطقة هو تعزيز التواجد الفرنسي بالغرب الجزائري, ومحاولة القضاء على المقاومة الشعبية التي كانت تدعم جيش الأمير عبد القادر.[13]

والملاحظ أن منطقة سيدي بلعباس كانت تلعب دورا هاما في السياسة الاستعمارية يومئذ، وهو الأمر الذي دفع السلطات الفرنسية إلى الاهتمام بها. وهذا ما نستشفه من خلال رسالة بعث به **لامورسيار** قائد مجموعة وهران العسكرية إلى الحاكم العام الفرنسي سنة 1843 يقول فيها: "لا بد من تأسيس مدينة هنا - سهل مكرة - بهذا المكان لأن الناحية أصبحت الموقع المفضل والضروري لنا، نحكم به كل بلاد قبائل **بني عامر** الشاسعة، فهذا المركز الاستيطاني سيكون بمثابة الدعم اللوجيستيكي للتجمعات العسكرية العاملة هنا،

أما الاحتياطي منها سيكون لتدعيم تواجدنا بمقاطعة وهران، فمنطقة سيدي بلعباس قريبة من البحر، سهلة الاتصال مع معسكر من الناحية الشرقية، وتلمسان من الناحية الغربية حيث تصبح المواصلات مع وهران أكثر أمنا قريبة من الصحراء، تجعلنا نتحكم بشكل جيد في أوضاع المنطقة, إنها حماية استراتيجية للمعمرين... المنطقة - سيدي بلعباس - موقع أساسي في مجموع مؤسستنا... لذا نقترح تأسيس مركز استيطاني بالقرب من سهل مكرة، مع إمكانية تجفيف المستنقعات الموجودة به."[14]

والواقع أن تصريحات **لامورسيار** كانت وراء صدور قانون 19 سبتمبر 1848 القاضي بتأسيس عدة مراكز استيطانية استعمارية منها 12 في مقاطعة الجزائر، و 9 في قسنطينة و 21 في إقليم

وهران[15]، ومن بينها 10 مراكز تأسست في سيدي بلعباس منذ 1846. ومع بداية 1853 تأسست ثمانية مراكز استيطانية بمساحة تتربع على 9661 هكتار، حيث استقرت بها المئات من العائلات الأوروبية المهاجرة. وخلال الفترة الممتدة من 1850 إلى 1880 توسع النسيج الاستيطاني بالمنطقة ليشمل المراكز التي يوضحها الجدول التالي: [16]

المركز	تاريخ التأسيس
مولاي عبد القادر	1875
الضاية	1876
الروشي	1853
سيدي إبراهيم	1853
سيدي حمادوش	1863
سيدي لحسن	1853
سيدي خالد	1863
فرودة	1853
تنيرة	1879
عين البرد	1875
ماجننتا	1870
سفيزف	1874
لمطار	1875

تلاغ	1880
طابية	1880
تغاليمث/ سليسن	1881 [16]

أوكلت إدارة الاحتلال مهمة إنجاز المركز الاستيطاني في سهل مكرة إلى فرق **اللفيف الأجنبي** وهذا ما بين 1842 و 1845، وفي نهاية 1848 أرسلت لجنة حكومية مختصة وضعت الترتيبات الأولى لتأسيس مركز سيدي بلعباس. كما كلفت اللجنة المهندس النقيب **برودون** (Prudon) برسم شوارع المدينة الجديدة وأحيائها ومرافقها الاقتصادية والاجتماعية. وتوحي الهندسة المعمارية للمدينة في شكلها المستطيل بأنها من طراز المدينة الرومانية القديمة في شمال إفريقيا. [17]

حددت مساحة المدينة حينئذ بـ 42 هكتار، وخصص لهذا الغرض 16 هكتار لبناء الثكنات ومراكز اللفيف الأجنبي, ومن أجل تحصينها من هجومات القبائل المحلية، قررت السلطات الاستعمارية بناء سور بطول 3كلم وعلو 5 أمتار، تحيطه خنادق واقية بعرض 14 مترا [18]. كما أنجزت أربعة أبواب (1854 -1855) تفتح في الصباح وتغلق عند غروب الشمس, واحد في الشمال وهو باب وهران, وباب الضاية بالجنوب، وباب معسكر بالشرق، وباب تلمسان بالغرب. بالإضافة إلى إنجاز الثكنات العسكرية (1851 -1861) والمستشفى العسكري، والحديقة العمومية [19].

إن مساهمة عناصر **اللفيف الأجنبي** في تشييد مركز سيدي بلعباس، تنطلق أساسا من سياسة **بوجو** (1840 -1847) الذي رأى أن الإستيطان مهمة عسكرية يحققها "المعمرون العسكريون", ومن هنا نجح **بوجو** في استخدام الجيش الذي تمكن من بناء المستوطنات وفتح الطرقات واستصلاح الأراضي وغرس الأشجار في انتظار وصول المعمرين, ورفع شعار: في كل مكان توجد فيه المياه الصالحة والأراضي الخصبة, يجب أن يقيم المعمرون دون الاستفسار عن أصحابها".[20]

والجدير بالذكر أن مرسوم 31 ديسمبر 1856 حول مركز سيدي بلعباس الاستيطاني إلى بلدية، وأثناء زيارة **نابليون الثالث** لها (1848 -1870) سنة 1865 أطلق عليها اسم (نابليون سيدي بلعباس)[21]. غير أن اسم الوالي الصالح **سيدي بلعباس** غلب على تسميتها. كما ازدادت أهمية المدينة أثناء زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية **إميل لوبي** (E. Loubet) سنة 1903، وتكريمه لعناصر اللفيف الأجنبي.

والواقع أن سيدي بلعباس أصبحت قاعدة رئيسية لقوات **اللفيف الأجنبي** حيث كانت تعتبر ثكنة **فينيو** (سي بلحسن حاليا) مشتلة حقيقية لكل فيالق اللفيف الأجنبي التابعة للجيش الفرنسي, تؤطرها عناصر من المرتزقة الفارين من بلدانهم حيث تحتوي هذه الفرقة على أكثر من 42 جنسية أغلبهم ألمان. وكانت المهمة

الأساسية لهذه العناصر بناء المراكز الاستيطانية والمشاركة في حروب الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية.[22]

تمركزت عناصر اللفيف الأجنبي بمنطقة سيدي بلعباس منذ 1842 وهذا بغرض تطوير المراكز الاستيطانية في منطقة سهل مكرة وتعود الأسباب الاستراتيجية لهذا التواجد إلى العوامل التالية:

أ - مراقبة نشاط عامر والتوغل في أراضي سهل مكرة، ثم القيام بالعمليات التوسعية على حساب المناطق القريبة من بلعباس كملاتة وسيق والمحمدية ومعسكر.

ب - تمركز الجالية الأوروبية في إطار سياسة الاستيطان.

ج - خلق مركز أمني للعبور ما بين منطقتي وهران معسكر من ناحية وبين وهران وتلمسان من ناحية أخرى.

د - فتح الطريق نحو الجنوب الجزائري انطلاقا من الضاية ثم الصحراء.

اهتم الماريشال **راندون** (1852 -1858) اهتماما كبيرا بالاستيطان, فشجع الهجرة إلى الجزائر وبناء القرى حيث بلغت سنة 1853 ستة و عشرين قرية, ثم أصبحت 56 قرية عام 1853. أما الجزائريون الذين يملكون حقوق استعمال أراضي العرش, فكانوا ملزمين بالتنازل على أراضيهم لصالح الدولة، وبالمقابل تعترف لهم الإدارة الاستعمارية بحق الملكية الفردية أو حماية أراضيهم. وقد

شملت هذه العمليات 16 قبيلة بمساحة تقدر بـ 343.385 هكتار وهذا ما بين سنوات 1851و1861 وأصبح 61.361 هكتار تابعا للدولة.[23]

وجاء قانون **سناتوس كونسولت** (Sénatus-Consulte) بتاريخ 22 أفريل 1863 ليحاول تنظيم الأراضي الزراعية ويقسمها إلى أربعة أنماط: (ملك - عرش - تابعة للدولة - مشاعة)، وبهذه الخطة تم تقسيم القبائل إلى دواوير وعلى أساسها تم تفتيت بنية المجتمع الجزائري وتحديد الملكية الفردية بتكسير الملكية الجماعية للأراضي، وبخصوص تطبيق هذا القانون تشير رواية شاهد محلى في منطقة مكرة: "تواصلت في منطقة سيدي بلعباس عمليات تفتيت الملكيات الجماعية لتشمل أراضي **أولاد سليمان** و**أولاد إبراهيم** (9 مارس 1866) و**حميان** (13 أفريل 1866) و**الحساسنة** (26 جوان 1866) مع اختيار مبدأ الأفضلية للأراضي القريبة من التجمعات الاستيطانية أو القريبة من الغابات. [24]

والملاحظ في هذه العملية أن قانون **سناتوس كونسولت** قد جرد الجزائريين من أملاكهم لفائدة الاستيطان الأوروبي بطرق قانونية, ولاحظ أحد المعمرين أن التطور الحقيقي للاستعمار الفرنسي في منطقة سيدي بلعباس بدأ منذ 1875 بتوزيع سندات الملكية وتقسيم أراضي **الحساسنة** و**الحجز** و **العمارنة** في سنة 1876 وأراضي **المحاديد** و**أولاد غازي** منذ تطبيق قانون **وارنيي** (Warnier) المؤرخ في 26 جويلية 1873.[25] و من هنا بدأ تسجيل عقود البيع

للأراضي في إطار اتساع الهوة بين الجزائريين الذين إزدادوا فقرا يوما بعد يوم في مقابل الأوروبيين الذين أصبحوا بتقادم الزمن أغنياء بفعل المضاربة في مجال المعاملات العقارية.

لقد حقق المعمرون في عهد الجمهورية الثالثة (1870 -1940) مطلبا هاما هو فتح المجال للدخول إلى أراضي العرش بواسطة قانون 1873 المشهور باسم قانون فارني [26] حيث أقام الملكية الفردية داخل أراضي القبائل الجماعية وأوضح الحاكم العام غامبون (Gambon) (1891 -1897) أن قانون 1873 كان يهدف إلى فتح الملكية الجماعية للجزائريين - غير قابلة للتقسيم - والتي كانت فيما سبق مغلوقة أمام النشاط الاستيطاني وتدفق رؤوس الأموال الأوروبية[27].

وفي نظر المعمرين فإن إعادة تنظيم الملكية المشتركة للأرض وإشاعة تنظيم الملكية الفردية هو السبيل الأنجع الذي يؤدي إلى الازدهار الاقتصادي للجزائر وعمليات تسهيل انتقال الملكيات تمكن الكولون من الحصول على أراضي الجزائريين بسهولة.[28]

إن فكرة مصادرة أراضي القبائل الثائرة قد بدأ تطبيقها في عهد **بوجو** بواسطة مرسوم 31 أكتوبر 1845 الذي صادر أملاك الجزائريين العقارية والمنقولة للذين يقومون بنشاط عدائي ضد فرنسا [29]. والواقع أن مصادرة الأملاك كانت تخدم هدفين:

1 - قمع انتفاضات الجزائريين ضد التواجد الفرنسي الاستعماري.

2 - الحصول على الأراضي وبالخصوص أراضي العرش التي كانت تشكل عائقا أمام التوسع الاستيطاني.

إن ظاهرة تركيز ملكية الأرض في يد أقلية من المعمرين الكبار الذين كانت الفلاحة بالنسبة لهم مشروعا قد بدأت مع بداية الاحتلال, لكنها اشتدت في عهد الجمهورية الثالثة التي عملت على تشجيع الاستيطان المدني وسياسة الإسكان والملكية الصغيرة ومساعدة المعمرين على بناء المراكز بتقديم الأراضي لهم مجانا.

لقد سهلت الإدارة الاستعمارية بواسطة قانون 1873 العقاري إباحة جميع أراضي العرش والدولة لفائدة الاستيطان الذي فضل الاعتماد على المزارع الكبرى الملائمة لزراعة الحبوب والكروم. إننا أمام رأسمالية الفلاحة الجزائرية.

ولعل من المفيد أن نلخص التقديرات والأرقام التي تتعرض لإحصاءات سكان منطقة سيدي بلعباس وتوزيعهم العرقي في الجداول التالية:

الجدول -1 -

الأصل	العدد
جزائريون	105
زنوج	148
يهود	391
أوروبيون	3968
المجموع	**4613** [30]

الجدول -2 -

الأصل	العدد
فرنسي	2.157
إسباني	2.046
إيطالي	147
مالطي	13
إنجليزي	2
ألماني	168
بولوني	19
سويسري	6
روسي	2
مولداني	1

بلجيكي+ هولندي	56
روماني	1
المجموع	**4618** [31]

الجدول -3 -

الأصل	**العدد**
فرنسيون	4.343
إسبان	9.686
يهود	**427** [32]

الجدول -4 -

الأصل	**العدد**
فرنسيون	31.279
جزائريون	41.706
المجموع	**72.985** [33]

ونستنتج من الأرقام والإحصاءات الواردة في الجداول أن هذا التوزيع العرقي لم يكن من قبل الصدفة, بل دبرته إدارة الاحتلال منذ الشروع في تأسيس المدينة. وكان الهدف من هذا التمركز الأثني (ethnique) هو خلق عرق من أصل أوروبي مسيحي.

ويبدو من خلال الجدول الثالث أن عدد الإسبان تضاعف على باقي الأجناس الأوروبية, وهذا ما يجعلنا نجزم بوجود تمركز إسباني - فرنسي بالمنطقة, وكذا بقية المراكز الاستيطانية المتواجدة في الغرب الجزائري. والأهم في ذلك أن منطقة سيدي بلعباس أصبحت تحتل المرتبة الخامسة في الجزائر من حيث تمركز الجالية الأوروبية, وهو الأمر الذي جعلها منطقة ضغط وغليان مستمر خلال فترة الثورة التحريرية وخاصة من طرف المنظمة الإرهابية والمتمثلة في منظمة الجيش السري (OAS). [34]

ثالثا: مشروع السكك الحديدية في منطقة سيدي بلعباس:

إن حدث إنجاز طرق السكك الحديدية في الجزائر كان من الاهتمامات الرئيسية لفرنسا, وذلك بغرض التحكم في المستعمرة الجديدة واستغلال خيراتها مع ضمان السيطرة العسكرية والمدنية. وتعود أهمية إنجاز خطوط السكك الحديدية في سهولة تحرك ونقل الجيوش في مناطق الاضطرابات وتوغلها في المناطق الداخلية.

ولقد مرت مشاريع إنجاز خطوط السكك الحديدية الفرنسية بالجزائر بثلاث مراحل أساسية. وهذا ما خلص إليه المؤرخ الجزائرية **بلقاسمي بوعلام** في دراسته القيمة حول فرنسا والسكك الحديدية بالجزائر 1850 - 1900 [35].

1 - مرحلة التجربة 1857 - 1872:

وهي المرحلة التي كان فيها إنجاز مشاريع السكك الحديدية تحت وصاية الشركة الجزائرية للسكك الحديدية بمساعدة الجيش الاستعماري.

2 - مرحلة التطور 1873 - 1879:

سمح مرسوم 7 ماي 1874 للمجالس البلدية بإنجاز خطوط للسكك الحديدية على المستوى المحلي، وتكلفت شركة مجموعة الغرب الجزائري في ماي 1874 بإنجاز خط حديدي بين تليلات وسيدي بلعباس.

3 - مرحلة مشروع فارسيني [36] 1879 - 1892:

وتمثل مشروع فارسيني فيما يلي:

أ - ترتيب خطوط السكك الحديدية الثانوية إلى درجة خطوط ذات المصالح العامة ونسجل في هذا الإطار خط تليلات - سيدي بلعباس.

ب - إنجاز خطوط جديدة تربط الشرق الجزائري بالغرب على طول 254 كلم.

ج - إنجاز خطوط تربط المراكز التلية بالساحل كبجاية، بني منصور، شلف، تنس، غليزان ومستغانم.

د - إنجاز خط حديدي يربط وهران بالحدود المغربية طوله 203 كلم، مرورا بعين تموشنت وتلمسان.

هـ - إنجاز خط حديدي يربط الجنوب بالأقاليم الثلاثة:

1 - الشرق بخط طوله 417 كلم.

2 - الوسط بخط طوله 244 كلم.

3 - الغرب بخط طوله 194 كلم, وهو الذي يمر على منطقة سيدي بلعباس انطلاقا من غليزان. (37)

والواضح أن الإستراتيجية الإستعمارية في مجال السكك الحديدية كانت تعمل لصالح موازين القوى العسكرية التي تساعد جيش الاحتلال من تكثيف تدخلاته ضد الثوار والعمل على نقل الجيوش والذخيرة بسرعة كبيرة.

لقد كانت مشاريع إنجاز خطوط السكك الحديدية بمثابة الدعم اللوجيستيكي لصالح المحتل الذي يواجه الثورات بسرعة تنقلاته، وفي هذا الصدد تمكنت الإدارة الاستعمارية من إنجاز خط حديدي جديد يربط مركز سيدي بلعباس بمنطقة رأس الماء المنفذ الرئيسي نحو الصحراء وهذا ما بين سنوات1881 و 1885.

كما ساهم هذا الخط في حماية الحدود الجزائرية من الجهة الغربية، ومراقبة تسلل الثوار نحو أراضي المغرب الأقصى. (38)

وتجدر الإشارة هنا إلى أن السياسة الاستعمارية في عهد الجمهورية الثالثة إضطرت إلى تطبيق سياسة محكمة تجاه

المواصلات باعتبارها دعامة رئيسية للاستعمار المدني والعسكري في شمال الجزائر بالإضافة إلى ربط المناطق التلية بالجنوب الجزائري ضمانا للسيطرة العسكرية للصحراء الجزائرية, ومن هذا المنطلق كانت منطقة سيدي بلعباس محورا أساسيا في هذه العملية الإستراتيجية.

وقد بدأت أعداد المستوطنين بالارتفاع خلال سنوات 1874 - 1889، مما أدى إلى توسيع زراعة الكروم بالجزائر وهذا بسبب مرض الفيلوكسيرا (Phylloxera) الذي أصاب كروم منطقة جنوب فرنسا. وفي تصريح للنائب الفرنسي بيردو (Burdeau) سنة 1892, أوضح أن الأشغال العمومية في الجزائر هي المسؤولة عن التطور الحقيقي لفائدة الاستعمار الفرنسي والتي ساعدت على خلق مراكز إستيطانية جديدة. فما بين سنوات 1871 إلى 1880، تم تأسيس 264 مركز إستيطاني وتوزيع 40.000 هكتار لصالح المعمرين الجدد بالتوازي مع توطينهم بالقرب من مرور خطوط السكك الحديدية. وخلال المرحلة الممتدة من 1881 إلى 1890 تم تشييد ما يقارب من 107 قرية وتوزيع 176.000 هكتار في سهول **مكرة** و الظهرة, وهو ما يفسر وجود خطوط حديدية: مستغانم، تيارت، تليلات، سيدي بلعباس، طابي، بالإضافة إلى وجود خط رئيسي يربط وهران بالجزائر العاصمة.[39]

ومما يلاحظ أن تزامن مرحلة إنجاز خطوط السكك الحديدية قد ارتبط بتدفق موجات الهجرات الأوروبية نحو الجزائر، حيث تم تجنيد ما بين 1876 -1878 حوالي 40 ألف أوروبي لصالح إنجاز السكك الحديدية[40]. وقد نتج عن إنشاء خط حديدي يربط مستغانم، تيارت، تليلات، سيدي بلعباس، طابية، سرعة بناء 46 مركز إستيطاني، وتوسيع دائرة النسيج الحضري للمعمرين بالمنطقة لترتفع أعدادهم من 176 ألف نسمة سنة 1885 إلى 198.985 ألف سنة 1890.[41]

اعتبرت فرنسا الجزائر منذ بداية الاحتلال مستعمرة لإسكانها بالفرنسيين، لكنها اصطدمت بانخفاض الهجرة الفرنسية نحو الجزائر، مما جعلها تتجه إلى تشجيع الهجرة الأوروبية وخاصة الإسبان والإيطاليين.

وكان الأوروبيون في الجزائر عبارة عن خليط من أجناس مختلفة وكان الهدف من تواجدهم هو خدمة الاستعمار الفرنسي بكل أبعاده العسكرية والسياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية.

وأوجب المقام في النهاية أن منطقة سيدي بلعباس تعتبر نموذجا لهذا الاستعمار، حيث كانت مهدا لقوات **اللفيف الأجنبي** وقاعدة عسكرية هامة في الاستراتيجية الفرنسية بالغرب الجزائري، وبالرغم من تعمير المنطقة بالجنس الأوروبي ومحاولة

إعطائها صورة المدينة الأوروبية، إلا أن مدينة الوالي الصالح سيدي بلعباس ظلت تحتفظ بتقاليدها العربية الإسلامية.

الهوامش

1) - الجيش الإفريقي هي تسمية للجيش الفرنسي الذي كانت مهمته الاحتلال, وفرض الاستعمار بالقوة, ومحاربة القوى الوطنية.

2) - C.H. Churchill, La vie d'Abdel-Kader, Alger, Enal, 1979, PP 68-94.-

3) - A. Azza Mustapha Ben Brahim. Barde de l'Oranie et Chants des Beni-Amer, Alger, NED, 1979, P.86. .

4) - Léon Bastride, Bel Abbés et son arrondissement. Histoire administrative, Oran, Imp Perrier, 1880,P60

5) - Ibid. P15. -

6) - للمزيد من التفاصيل حول ثورة أولاد إبراهيم, راجع:

-Léon Adouné, La ville de Sidi-Bel-Abbès. Histoires. Légendes. Anecdotes, S.B.A, 1927,PP 43-45.
-Luis Rinn, Marabouts et khouanes .Etude sur l'Islam en Algérie. A.Jourdan, 1884,PP239,.240.

7) - -Léon Adoué, Op. cit. P.45.

8) - - H.churchill, Op. cit. P.164.

9) - Léon Bastide, Op cit. PP210-244.

10)-La Coste Nouschi Prenant, l 'Algerie, Passé, Présent. Paris. Ed Sociales. 1960,P359.

11) - شارل روبير أجيرون, تاريخ الجزائر المعاصرة (ترجمة عيسى عصفور). ط 2. الجزائر:ديوان المطبوعات الجامعية. 1982.ص 43.

12) - المرجع نفسه. ص 48 - 49.

(13 - Paul Azan, La fondation des villes d'Oran .In. B.S.G.O,T.LXIII. 1947,PP8 -10.

(14 - Léon Adoué, Op. cit.PP 43 - 44.

(15 - Bulletin officiel des actes du gouvernement, N° 195, Alger,846,P19.

(16 - R. Ainad Tabet, Histoire d'Algérie. Sidi-Bel Abbés, de la colonisation à la guerre de libération en zone 5 wilaya V, 1830-1962. ENAG. Editions, Alger, 1999, PP76 -78.

(17 - Léon Adoué. Op .cit 47.

(18 - L. Bastide. Op. cit . P47.

(19 - Ibid. P47.

(20 - Tableau de la situation des établissements Français dans l' Algérie, Paris, Février 1838.P89.

(21 - L.Adoué. Op. cit. P. 206.

22) - تأسس جيش اللفيف الأجنبي بمقتضى مرسوم ملكي (عهد لويس فليب 1830 -1848) بتاريخ 10 مارس 1831، والقانون المكمل له في 9 مارس 1831 الصادر عن الوزارة الحربية الفرنسية وانتقل هذا الجيش إلى الجزائر مع بداية 1832.

-للمزيد حول الموضوع أنظر:

- Flammarion. - Pierre Mac.Orlon la légion étrangère.Paris, 1933.

23) - أجيرون، المرجع السابق، ص 15.

(24 - L. Bastide. Op.cit. P .87

(25 - Ibid.

26) - فارني، طبيب جراح، دافع عن مصالح المعمرين، وتقدم بتقرير إقتصادي أمام الجمعية الوطنية الفرنسية في 4 أفريل 1873 المتضمن المشروع العقاري في الجزائر, ونص هذا

المشروع على تنظيم الملكية العقارية وسهولة النقل التعاقدي للعقارات وتقسيم الملكية الجماعية للقبائل للمزيد من التفاصيل أنظر:

-R. Estoublon et A. Lefebure. Code de l'Algérie (1830-1885). Adholphe Jourdan,Alger,1896,PP404-410.

وأيضا:

-Djillali Sari ,La dépossession des Fellahs 1830-1962. SNED, Alger, 1975. PP45-49.

J. - 27

-Gambon, Le gouvernement général de l'Algérie, Libérie Champion , Edition, Alger, 1918, P 39.

28) - أجيرون، المرجع السابق, ص .88

-R. Estoublon. Op. cit. PP 77- 80 . - 29)

30) - جدول يمثل إحصاء لسكان مدينة سيدي بلعباس عام .1856

31) - إحصاء السكان لمدينة سيدي بلعباس بتاريخ 31 ديسمبر 1859.

أنظر:

-Compte A. Villetard de Prunière ,Premier commissaire civil. In. R.M. S.B.A. N° Sept 1961,P6.

32) - إحصاء سكان المنطقة لسنة 1877 يبين تضاعف عدد سكان الإسبان بالمنطقة أما اليهود فتحصلوا على الجنسية الفرنسية بفضل المرسوم كريميو المؤرخ في 24 أكتوبر .1870

33) - إحصاء سكان المنطقة في أكتوبر 1954.

أنظر: - R. Ainad, Tabet .Op, cit. P 114.

34) - مناطق التمركز الأوروبي حسب الترتيب: 1 الجزائر، 2 وهران، 3 قسنطينة، 4 عنابة.

35) - موضوع هذه الرسالة هي عبارة عن أطروحة دكتوراه نوقشت بإحدى الجامعات الإنجليزية عام .1984

36) - فارسيني، وزير فرنسي للأشغال العمومية, قدم في سنة 1879 مشروع خاصا لإنجاز خطوط سكان السكك الحديدية بالجزائر.

37) - Boualem Belkacemi, Colonialisme et chemin de fer en Algérie au XIX -siècle.in.R.H.M (N°89-90).Tunis,1998,PP31-47.

38) - Ibid.PP. 40 -42.

39) - Ibid .P43.

40) - Idem.

41) - Idem.